

دراسات ما بعد الكولونيالية عند "جماعة التابع" الهندية

Postcolonial Theory In The Indian Subaltern Group

ياسين كريم*

تاريخ النشر: 2019/12/25	تاريخ القبول: 2019/11/17	تاريخ الإرسال: 2019/09/30
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يعود ظهور دراسات ما بعد الكولونيالية إلى خمسينيات القرن الماضي من خلال مجهودات نخبة من المفكرين، بدءاً من مذكرات السجن لـ "أنطونيو غرامشي"، التي أسس فيها لأفكاره الجديدة المنبثقة من حياة المجتمع ومضامين الواقع، فكان من جملة من تأثر بهذه الأفكار فرانتز فانون و إدوارد سعيد... ثم حدث أن تبلورت الأطر المعرفية والمنهجية للدراسات ما بعد الاستعمارية منذ أواخر ثمانينيات القرن المنصرم مع جماعة التابع الهندية"، وهم نخبة من المؤرخين الهنود قلبوا مدونة تاريخ الهند الرسمي واقترحوا إعادة كتابته في ضوء مفاهيم مغايرة متصلة بالتاريخ الشفوي المنسي الذي استبعدته النخب الاستعمارية.

انطلاقاً من هذه الأفكار، تحاول الدراسة تسليط الضوء على بعض من جهود تلك الجماعة وهي تُرسي دعائم هذا الحقل وتختطّ حدوده النظرية، واقفة في الوقت ذاته على مجهودات ثلاثة من أعلام هذه الجماعة هم كل من: هومي بهابها أحد كبار نقاد دراسات ما بعد الكولونيالية، إضافة إلى "غياتري سبيفاك"، أحد المؤسسات للنظرية ما بعد الكولونيالية، ومنظرة نسوية بحق في مرحلة ما بعد الاستعمار، وأخيراً "رانا جيت جوها" الذي سعى إلى إعادة كتابة تاريخ التابع من وجهة نظر الفئات المهمشة.

krim19yacine@gmail.com

ياسين كريم .

المؤلف المرسل:

* جامعة محمد لمين دباغين krim19yacine@gmail.com

الكلمات المفتاحية: الكولونيالية، ما بعد الكولونيالية، غياتري سبيفاك، التابع،

الهامش.

Abstract:

The implications of the emergence of postcolonial studies in the fifties of the last century , are attributed to the efforts of a group of intellectuals, from the prison notebooks of Antonio Gramsci, in which he founded his new ideas emanating from the life of society and the implications of reality. , Edward Said. Then, the cognitive and methodological frameworks of postcolonial studies emerged since the late 1980s with the Indian Studies Group, an elite of Indian historians who turned India's official history code and suggested rewriting it in the light of different concepts related to oral history of India who was ruled out by the colonial elites.

Based on these ideas, the study attempts to shed light on some of the efforts of this group, which lay the foundations of this field and the theoretical limits, while standing at the same time the efforts of three of the flags of this group are: Humi Bhabha one of the leading critics of postcolonial studies, To Gayatri Spivak, one of the institutions of postcolonial theory, a truly feminist post-colonial perspective, and finally RanaJit Guha, which sought to rewrite the history of the subordinate from the point of view of marginalized groups

Keywords: Colonialism, Postcolonialism, Gayatri Spivak, Subaltern, Margin

*** **

مقدمة :

نُعدّ "ما بعد الكولونيالية" من المصطلحات الحديثة التي لاقت جدلا واسعا بين أهل الذِّكر من الدّارسين والنّقّاد، ما نجم عن سوء فهم حدود هذا المصطلح تباينا رهيبا في مستوى توظيفه، فأنتج لنا هذا التلکؤ خطابا غير مكتمل المعالم في بعض الأحيان، فاقدّ للأسس المنهجية والعملية التي بهما تتحدّد طبيعة كل حقل معرفي، يحدث ذلك في وقت زادت الحاجة إليه من طرف تلك الشعوب المتمركزة خارج المنظومة الغربية لفقّ كل أشكال الخضوع والتبعية، والذي تفاقمت تبعاتُه حين عزّزت الإمبريالية الغربية من وجودها العسكري ببسط السيطرة ثقافيا وعقديا على تلك الشعوب المضطهدة في بلدان العالم الثالث، فشكّل ذلك اللبّات الأولى لميلاد وعي مضاد، وقف في وجه هذا الجموح

دراسات ما بعد الكولونيالية عند "جماعة التابع" الهندية

الغربي وقاومه بكل أشكاله، ليرتسم بذلك ميلاد هذا الحقل المعرفي - نقد الخطاب الاستعماري - مع جماعة من المفكرين وضعوا أساساته واختطوا طريقه، ليعرف فيما بعد باسم: "دراسات ما بعد الاستعمار".

من هنا تأتي الدراسة لتستقصي تطور هذه الدراسات عند "جماعة دراسات التابع الهندية" وتقف عند أهم القضايا التي عالجها هؤلاء بالدرس والتحليل، وتقف عند أشكال من الإسهامات النظرية والعملية لهؤلاء في حقل نظريات ما بعد الاستعمار، لكن قبل ذلك، دعونا أولاً نرسم خطاً كرونولوجياً واضحاً لهذه الدراسات منذ نشأتها. ثم بعدها ليعود البحث إلى تلك الجماعة ليقف معها بشيء من التفصيل والبيان.

2. دراسات ما بعد الكولونيالية بين نشأة النظرية وحدود المفهوم:

تعود الجهود التأسيسية لهذا الحقل إلى المفكر الإيطالي "أنطونيو غرامشي" Antonio Gramsci، الذي كانت أفكاره الممهد الرئيس لنقد الخطاب الاستعماري انطلاقاً من كتابه: "مذكرات السجن" The prison notebooks " ففي هذه المرحلة أسس "غرامشي" لقطيعة مع الطّروحات اليسارية التي تتعامل بمنطق حتمي جامد مع المجتمع، وقد تحدّث "غرامشي" عن مجموعة من المفاهيم التي تصب ضمن خانة نقد الهيمنة الغربية من أبرزها: تحديد الفروقات الجوهرية بين مفهوم المثقف التقليدي والمثقف العضوي، فالبشر كما يرى "غرامشي" كلهم مثقفون بمعنى من المعاني، ولكنهم لا يملكون الوظيفة الاجتماعية للمثقفين، وهي وظيفة لا يمتلكها إلا أصحاب الكفاءات الفكرية العالية الذين يمكنهم التأثير في الناس¹؛ أي هم أولئك الذين أُعطوا مقدرة خاصة في التأثير على عقول الناس واستمالة عواطفهم، وأُعطيت لهم من الفرص ما سمحت لهم باعتلاء مراكز يكونون من خلالها الممثلين لأصوات الشعب دون زيف عن أداء هذه الرسالة، فالمثقف ضمن هذه المنظومات الاستعمارية لن يستطيع صياغة مشروعه ولا متحدثاً باسم قوميته، إلا بالدخول في حرب ضروس ضد هذا الدجل السياسي الاستعماري الذي ما ينفك محاولاً استمالاته خدمة لمشاريعه، فانطلاقاً من هذا، يجب على المفكر أن يتحرك خارج هذا الإطار المركزي/الغربي، ويعمل على تفكيكه وكشف النوايا المضمرة داخله.

على خُطى "غرامشي" انبرى الأديب المارتينيكي "فرانتز فانون" Fanon Frantz في العمل على التخلص من كل آثار التبعية الفكرية والسياسية والاقتصادية الذي أصبح واقعاً فرضته القوى المستعمرة، ولا يتأتى ذلك - حسب فانون - إلا بالدخول ضمن حركات سياسية ثقافية تأخذ على عاتقها مهمة التنوير وإعادة بعث المقومات الفكرية والحضارية لهذه الأمم، ويأتي كتاب "فانون" "معذبوا الأرض" "les Damnes De La Terre" سنة 1961م، في هذا الوقت الحاسم من تاريخ بعض الشعوب المستعمرة كمرتکز عملي ومنهجي تدفع بهذه الجماعات إلى تحقيق هويتها واستعمال جميع الوسائل بما فيها العسكرية لتحقيق ذلك. كما تصدّى "فانون" في كتاباته للعديد من القضايا التي هي من صميم الخطاب الاستعماري، مُمهداً بذلك الطريق أمام المفكر الفلسطيني "إدوارد سعيد" Edward Said الذي يُعتبر كتابه: "الاستشراق" "Orientalism" من المؤسسين الفعليين لدراسات ما بعد الاستعمار، فالاستشراق هو تلك الدراسة العلمية التي نشرت عام 1978م وتُعدّ ثورة حقيقة في آداب ما بعد الكولونيالية، فللكتاب مفاهيمه الخاصة ومصطلحاته التي بهما يبحث في الاختلالات الجوهرية بين الشرق والغرب، وتشكّل النظرة الاستعمارية للغرب في مقابل الشرق، بل ويبحث في المخططات السياسية الغربية وحتى في الأعمال الأسطورية والإبداعية التي كرسّت هذه النظرة الاستعمارية وعملت على تمريرها، فكانت النقطة الرئيسية التي عمل "الاستشراق" على إظهارها هو خلق الوعي المضاد من خلال تفكيك هذه السرديات الأوروبية وكشف نظرتها الاستعمارية السّافرة.² إن هذه الجهود السالفة الذكر أسست لنقد كل ما هو استعماري في شقيه العسكري والثقافي، لكنّها لم تؤسس لمفهوم ما "بعد الكولونيالية" أو ما بعد الاستعمار كحقل واضح المعالم له أُسس ومنهجية الخاصة به، واستمرّ هذا الحال مع من جاء بعدهم من المفكرين ردحا من الزمن دون أن يملك أحد الجرأة لتقديم توصيف شامل لمعالم هذا المصطلح. وقد يُعزى هذا العجز، إلى دينامية المفهوم في حدّ ذاته الناتجة هي الأخرى عن التركيب اللغوي للمصطلح، فلماذا ألصقت الـ"بعد" بالكولونيالية يا ترى؟ وما دلالة استعمال السابقة "ما" في عُرف اللغة؟

دراسات ما بعد الكولونيالية عند "جماعة التابع" الهندية

إنّ التفكيك اللغوي لدلالات استعمال المصطلحات والمفاهيم والنبش عميقا في جذورها التأسيسية وفي المناخ الحاضن لها سيساعدنا - بلا شك - في الاقتراب من ماهية أيّ مفهوم في بعده النظري والعملي، ويزيل عنا كثيرا من اللبس والغموض الذي يكتنف تشكل هذه المصطلحات. إذ إننا نقف في هذا الزّمن على عتبة الانتقال إلى مُجتمعات "الما بعد" فأصبحت هذه الكلمة موضة القرن العشرين بامتياز، فانتشر بذلك خطاب الما بعديات، ما بعد الكولونيالية، ما بعد الحداثة، ما بعد التدين، ما بعد البنيوية، ما بعد الفلسفة، حيث تشير هذه المصطلحات كلية - من خلال الجذر اللّغوي للكلمة - إلى مرحلة تلي مرحلة سابقة لها، ولكن هذا التوجّه الفكري هو أكثر ما يحذّر منه الكثير من النّقاد، إذ يخشى هؤلاء من الوقوع في فخّ الـ"ما بعد" التي توحى بالكرونولوجية والتعاقبية. أمام هذا الجدل سقطت ما بعد الكولونيالية في هذا الفخ من الخطابات التي تلوك هذه اللفظة دون أن يملك أحد الجرأة ويسمّيها باسم واضح ودال، فبقيت اللفظة غائمة ومُهمّة ترمي بنا جهة المجهول الذي يتجلى في عجز التفكير عن تقديم وصف دقيقة لهذا الاستعمال³ إنّ ظهور مصطلح "ما بعد الكولونيالية" مرتبط ارتباطا وثيقا بحركة ما بعد الحداثة التي ارتبطت بطغيان وسائل الإعلام، وبالكلم الهائل من المعلومات التي يتم تناقلها، جعل مفكري ما بعد الحداثة يرفضون فكرة المركز؛ الجهة التي تملك ادعاء الحقيقة وشرعيتها، إذ لا مركزية في نظرهم فكل شيء نسبيّ قابل للتشكيك، إلّا الفكرة الأساسية التي تقوم عليها ما بعد الحداثة وهي اللاتعيين.

من هذا المنطلق تكون ما بعد الكولونيالية ردّة على كل اليقينيّات الاستعمارية؛ إذ لا وجود لحقيقة واحدة، هكذا تصبح ما يسمى بالسرديات الكبرى أو النظريات التي تحكم العالم مجرد وهم قدّمته الكولونيالية لتجسيد مركزيتها المريبة، فترسم بذلك نشوء سرديات مُضادة تفسّر وضعيات وأحداث تاريخية وفق شروطها ومعطياتها الخاصة بها؛ وبالتالي لا يمتلك أحد الحق باحتكار الحقيقة كما هو الحال في الأديان، التي تقدّم تفسيرها لحقيقة الكون والعلاقات البشرية. فنتيجة انهيار تلك المركزية بدأت الهوامش تظهر في عالم ما بعد الحداثة؛ والمقصود بالهوامش هي الحركات والتجمّعات التي تم اقصاؤها

وطمس هويتها ولم يسمح لها بالظهور كذوات لها خطابها المختلف ونظرتها للكون، فانتشلت ما بعد الحداثة الهوامشَ وسمحت لهم بتقديم نصوصهم ومحاورتها لتفكيك تلك الصورة النمطية التي رُسِّخَت عنهم⁴.

ضمن هذا المناخ الفكري السائد وعلى أنقاض تشتت المركزية الغربية نشأ خطاب ما بعد الكولونيالية وهو يناوش تلك الأسئلة فهي أهم النظريات التي رافقت ما بعد الحداثة، لاسيما وأن هذه النظرية قد ظهرت بعد سيطرة البنيوية على الحقل الثقافي الغربي، وبعد أن هيمنت الميثولوجيا البيضاء على الفكر العالمي وأصبح الغرب مصدر العلم والمعرفة والإبداع وموطن النظريات والمناهج العلمية فجاءت ما بعد الكولونيالية كردة فعل على كل اليقينيات الكولونيالية؛ من منطلق رئيس مفاده، لا وجود لحقيقة واحدة، هكذا تصبح ما يسمى بالسرديات الكبرى مجرد وهم قَدَّمته الكولونيالية/الحداثة لتجسيد مركزيتها المريبة، دعوة منها لترسيم نشوء سرديات مُضادة تفسّر وضعيات وأحداث تاريخية وفق شروطها ومعطياتها الخاصة، وبالتالي لا يمتلك أحد الحق باحتكار الحقيقة. فكانت ما بعد الكولونيالية إذاً من تلك الخطابات الما بعدية التي برزت في كنف الفكر ما بعد الحداثة وقد أخذت تتزايد تباعاً، عاكسة إحساساً بالتغير دون أن تعكس تماماً رؤيا واضحة لاتجاهات هذا التغير، ويبدو التداخل واضحاً فيما بين نظريات الما بعد؛ مثل ما بعد الحداثة وما بعد النسوية وما بعد البنيوية "ولا يمكن أن تكون ما بعد الكولونيالية استثناء من هذا التداخل(...)" فمثلاً تعمل ما بعد الحداثة على تفكيك البنيات والقيود التي تفرضها نظريات النوع الأدبي والسلطة والقيمة، والتي غالباً ما تكون قيوداً غير مكتوبة، وإن كانت تقاليد سائدة، ولا يسأم النقاد والدارسون من استدعائها كنوع من القياس الجاهز. أما منهج ما بعد الكولونيالية فهو - إلى حدّ كبير - ذو توجه سياسي يسعى إلى تفكيك الحدود والبنيات التي تكرر الهيمنة والسيطرة والسطوة، وترسيخ علاقات بين قوى غير متكافئة من خلال تقابلات ثنائية مثل "أنا والآخر" و"نحن وهم" و"العالم الأول والعالم الثالث" و"الأبيض والأسود أو الأصفر"، وإذا كان من المؤكد أن نصوص ما بعد الحداثة نصوص سياسية، فإن نصوص ما بعد الكولونيالية تنطوي

دراسات ما بعد الكولونيالية عند "جماعة التابع" الهندية

على هدف سياسي أكثر تحديدا يتمثل في الخلعة المستمرة للسلطة السياسية والثقافية للإمبريالية؛ ولذلك فإن ما بعد الكولونيالية، لا ترتبط بما بعد الحداثة فحسب، بل بالخطابات النسوية والخطابات التي تقوم على أساس طبقي وعرقي؛ لأنها تعتمد كلها إلى استخدام صيغ أدبية ومناهج فكرية متشابهة⁵، هذه بعض السمات المشتركة بين هذه الخطابات، أضف إلى ذلك أن استفادة نقاد ما بعد الكولونيالية من أفكار ما بعد الحداثة ومنظورها على مستوى واسع جدا فمثلا بدأ منظرو ما بعد الكولونيالية بتطبيق ما يسمى بمفهوم الخطاب في بحثهم كما أقرته ما بعد الحداثة انطلاقا من الوظيفة الأساسية التي رسخها "جون فرانسوا ليوطار" في شرحه لنظرية السامي sublime عند "كانط"؛ التي تنص على أن ظاهرة ما بعد الحداثة لا يمكن وصفها باستخدام الأنماط التقليدية المتعارف عليها في الحداثة ويقصد تلك المفاهيم الجديدة للبلدان المستعمرة مثل: الهيمنة، التبعية، التمييز الطبقي، الاضطهاد وغيرها من المفاهيم التي لا يمكن الحديث عنها ضمن الخطاب الكولونيالي، كما استعمل منظرو ما بعد الحداثة بشكل موسع أطروحات "ألتوسير" التي تدعي أن النصوص (الخطاب) غير مدركة للأفكار والافتراضات التي تحملها بين طياتها⁶ فتنتقل ما بعد الكولونيالية من هذا المسلمة قصد تفكيك تلك النصوص والوصول إلى ما تحمله من توجهات أيديولوجية تحاول المركزية الغربية تمريرها قصد تحقيق السيطرة متخفية بتلك السرديات الكبرى التي تبث ضمن هذه النصوص.

3. جماعة التابع الهندية ومشروع نقد الخطاب الاستعماري:

يعود ظهور "جماعة التابع" إلى ثمانينات القرن الماضي " وهم نخبة من المؤرخين الهنود قلبوا مدونة تاريخ الهند الرسمي المكتوب من قبل المؤرخين المتأثرين بالسياسات الاستعمارية البريطانية، واقترحوا إعادة كتابته في ضوء مفاهيم مغايرة متصلة بالتاريخ الشفوي المنسي الذي استبعدته النخب الاستعمارية⁷؛ فتاريخ الهند الحقيقي هو مزيج ذلك التفاعل بين الأقليات المضطهدة في القرى والأرياف، ومجموع تلك الحكايا والمتخيلات السردية للطبقات الفقيرة والمعدومة، وصوت الأنوثة الخافت في مقابل صوت الذكورة الطاغية، وكل تلك الفئات التي لم تنتج تاريخا مكتوبا، أما التاريخ المدون فهو في مجمله

نخبوي وزائف لا يصور بلادا غنية بحجم الهند، في كل ما يتصل بأعراقها وعاداتها وتنوع ثقافتها وأفكارها.

ويُرجع "دافيد لودن" "David Ludden" تأسيس هذه الجماعة إلى نهايات السبعينات من القرن الماضي في إنجلترا، لما جمع ذلك النقاش الفكري مجموعة صغيرة من المؤرخين الإنجليزيين ونظرائهم من الهنود حول موضوع "التابع"، تمخض عنه اقتراح إصدار مجلة جديدة في الهند، ووافقت مطبعة جامعة أكسفورد على نشر ثلاث مجلدات منها تحت عنوان: "دراسات التابع: كتابات حول تاريخ ومجتمعات جنوب آسيا"، وكانت هذه الدراسات تنشر سنوياً بداية من سنة 1982م وبعد نجاحها ظهرت ثلاث مجلدات أخرى، لتتوالى بعدها مجموعة من الإصدارات الأخرى في الخمس سنوات التي تلتها وكلها كانت محررة من قبل المفكر الهندي رانا جيت جوها.⁸

ولعل السمة البارزة لهذه الدراسات أنها وفقت إلى حدٍّ ما في انتقاء مجالات الاشتغال من حيث المضمون ومن حيث القضايا، فجاءت عميقة في الطرح، جريئة في المسألة والخلخلة وإعادة التقييم، وهذه المجموعة الضخمة من الدراسات جاءت لتشفّ عن عمق اهتمام هذه الجماعة وطبيعة المناقشات النظرية والمنهجية التي انخرطت بها منذ تأسيسها، فلا يمكن لأحد تجاهل الدور المحوري لمحرّر هذه الدراسات، المؤرخ والمفكر الهندي "رانا جيت جوجا" المرسخ لجذورها في تاريخ الدراسات الثقافية الحديثة، إذا تمكن بمعونة مجموعة من المؤرخين الهنود من وضع هذه الدراسات في مجال البحث الأكاديمي الحديث، فافتكت لنفسها اعترافاً في الأوساط الفكرية والثقافية، يوم أن صارت منبراً من خلاله تصدحُ أصوات المهتمشين والمضطهدين كونها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأحوال المجتمعات التي مرت بالتجارب الاستعمارية، فسرعان ما التحق بها باحثون كُثر اختصوا بدراسة جوانب متعددة لتلك المجتمعات.

وليس بعيداً عن هذه الأحداث ففي عام 1993م تأسست جماعة دراسات التابع في أمريكا اللاتينية، استجابة لما كانت تحقّقه تلك الدراسات في الهند وسواها من بلاد الشرق، وقدمت تحليلات شديدة الأهمية عن أوضاع المجتمع الكاريبي الذي خضع

دراسات ما بعد الكولونيالية عند "جماعة التابع" الهندية

للاستعمار الإسباني منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، ما جعلت تتناهبه مشكلات الهوية، والتركة الاستعمارية، واللغة، والمجتمعات الأصلية. وكان من نتائج هذا الحراك أن خصصت "المجلة التاريخية الأمريكية" قسماً خاصاً لمناقشة العلاقة بين النموذج التحليلي لدراسات التابع وتطبيقاتها لدراسة مجتمعات استعمارية أخرى، وبخاصة في أمريكا اللاتينية وإفريقيا⁹. فكانت هذه الشرارة الأولى التي فتحت المجال أمام هذا الحقل المعرفي الجديد، وتأسست بموجبه اللبنة الأولى لدراسات "التابع" التي تأخذ على عاتقها تقديم قراءة نقدية تاريخية تنطلق من صوت الفئات المهمشة في المجتمعات المستعمرة كبديل عن وجهة نظر المثقفين. وتعتبر جزءاً من الخطاب الاستعماري؛ إذ أنها تبحث عن آثار الاستعمار على الثقافات والشعوب وتربط ما بين تشكّل المعرفة وعلاقات القوة والسلطة في المجتمعات يعود أصل مصطلح "التابع" Subaltern الذي تسمّت به الجماعة - إلى القرن السادس عشر، فقد كان التابع يعني العريف في الجيش البريطاني دون رتبة الضابط، وهو من يتبع الأوامر وفق سلم التراتبية العسكرية ثم استخدمه بعد ذلك المفكر الإيطالي " أنطونيو غرامشي " Gramsci Antonio في كتاباته السياسية للإشارة إلى الفئات الأقل مكانة في مجتمعاتها، أكانت فئة إثنية، أو دينية، أو جنسية، أو عرقية¹⁰. ليستقر بعدها مصطلح "التابع" على الفرد الذي يعيش ضمن مجموعة مهمشة غير قادرة على التعبير عن حاجاتها و رؤيتها ولا حتى كتابة تاريخها الخاص، ثم اتضحت معالم هذا المصطلح أكثر ما يكون مع الناقدة الهندية " غياتري سبيفاك " Spivak Gayatri كما سيأتي بيانه فيما بعد.

وبالانتقال للحديث عن إسهامات هذه الجماعة في تبلور الفكر المناهض للاستعمار، فرغم التباينات الكبيرة في تحديد البدايات الحقيقية لما بعد الكولونيالية إلى أنّ أغلب الدارسين يجزمون أن البدايات الحقيقية، والانطلاق النظري لهذا الحقل كان مع أعلام هذه الجماعة، فضمن الحالة التأسيسية لهذا الخطاب تذهب "ليلى غاندي" إلى التنويه بجهود عدد من الدارسين؛ وتعني بذلك جماعة دراسات التابع Studies Subaltern وأبرزهم " غياتري سبيفاك " ودراستها المهمة " هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ " وفيها تبحث في

خصائص الخضوع والتابعة التي ميزت سكان منطقة جنوب غرب آسيا وذلك بالانكفاء على أفكار غرامشي الماركسي، إذن يمكن أن نطمئن إلى أن خطاب ما بعد الكولونيالية بدأ بالتشكل في مطلع الثمانينيات، وهو نفس ما أشار إليه معجم "أكسفورد" Oxford في تعريفه لمصطلح ما بعد الكولونيالية بالقول: "نشأ خطاب ما بعد الكولونيالية في أعمال جماعة دراسات التابع القائمة على التاريخ الهندي، متأثرين بأعمال التقاليد الماركسية الإنجليزية، لتدوين التاريخ، وكانوا مهتمين للتعبير عن المستعمرين (الذين وقع عليهم الاستعمار) أكثر من تبني وجهة نظر المستعمر (الذي قام بالاستعمار) وسلطتهم"¹¹ الهدف من الخطاب كما يشير القاموس إيصال صوت المضطهدين في خطاب هيمن عليه المستعمر.

وقد برز اسم "هومي بهابها" Homi Bhabha أستاذ الأدب الأمريكي والبريطاني في جامعة هارفرد وأحد أقطاب هذه الجماعة - جماعة التابع - من خلال طرحه لمفهوم ما بعد الكولونيالية في جانبيه النظري والعملي، ففي الجانب النظري انخرط "هومي بهابها" في مناقشة العلاقة بين المصطلح والدلالة الزمنية التي تنطوي عليها (ما) السابقة لكلمة (الكولونيالية)، فأغلب الدراسات تسهب في فصم العلاقة بين مدلول (ما) الذي يتبادر إلى الذهن مباشرة، ومبدئياً أنها معنية بالفترة التي تلت الاستعمار، في حين أن الكثيرين يرون أن (ما) هي دالة استمرارية تظل ما قبل الاستعمار إلى ما تلاه. إن (ما) كما يشير هومي بهابها، تحيل إلى أفق مفتوح من الممارسات والتحويلات، فالاستعمار الذي شكل واقع الشعوب قد وضع في التربة المستعمرة عدداً من البذور التي يمكن أن تُنبَت توجهات وأساليب ومواقف متعددة، فمقاومة الاستعمار ومحاولة ملاحقة كشف آثاره السلبية والتخلص منها، ما زالت مستمرة إلى الآن، فالاستعمار عمل على ربط الدول المستعمرة بمركزه من خلال حركة ديناميكية، تقوم على التبعية الفكرية والثقافية والاقتصادية، والتي أوجدت تشوهات ثقافية طالت الأنا والذات والثقافة واللغة، فعلى سبيل المثال، نرى أن نظام التعليم في عدد من الدول العربية يتبنى لغة المستعمر كلغة ثانية، فضلاً عن التقسيم الجيوسياسي لمناطق كانت في السابق عبارة عن تكتل جغرافي، وثقافي،

دراسات ما بعد الكولونيالية عند "جماعة التابع" الهندية

اجتماعي واحد، فالفصم لم يطل فقط الواقع السياسي، إنما شمل كامل البنى. فاللغة والثقافة للدول المستعمرة قد دخلت في مرحلة لا يمكن التنبؤ بها، ولعل هذا ما قصده "هومي بهابها" في بيان أثر ال (ما) فيمصطلح خطاب ما بعد الكولونيالية، فالمصطلح من حيث الدلالة الزمنية يتخذ مساحة كبيرة لدى الدارسين، فلا غرو أن يتعمق البحث فيه، فالاستعمار تَشكُّل مستمر، وغير مُنجز، بهذا يكون "هومي بهابها" قد وضع (ما) في سياق الإحالة المستمرة لشيء مضى¹².

بعد هذا التحديد النظري لمفهوم ما بعد الكولونيالية، عمد "هبابها" في تطبيقاته إلى تفكيك مرتكزات هذا الخطاب ولعل أبرز تلك المفاهيم التي جاء بها، ما يعرف بمفهوم "التهجين" الذي فسّر من خلاله نشوء أشكال ثقافية جديدة في عالم التعدّد الثقافي، ويحدد في طروحاته فكرة الاختلاف الثقافي من وجهة نظر الأقليات، وبهذا يُغيّر من طريقة استخدامنا لمصطلحات بعينها مثل: التعددية الثقافية، التنوع الثقافي، تعدد الهويات، فيرى بأن "الهجنة" والاختلاف الثقافي يعمل على شق مفهوم الهوية ويجعلها ضرباً من التقاطع والتفاوض بين معطيات متناقضة. يقول "ثائر ديب" في مقدمة ترجمته لكتاب "موقع الثقافة لـ: "هومي بهابها": "هكذا نزع كتابة بهابها تلك الألفة التي تُغلف المصطلحات التي نتقاذفها اليوم، مثل التعددية الثقافية، والتنوع الثقافي وتعدد الهويات (...) فلا يعود بمقدورنا أن نستخدم تلك الكلمات بما نستخدمه فيه من رضاً وبداهة دونما تفكير؛ ذلك أن الهجنة والتجاذب والانشطار والاختلاف الثقافي (لا التعددية الثقافية) تشق الهوية وتجعلها ضرباً معقداً من التقاطع والتفاوض بين فضاءات مكانية وزمنية تاريخية ومواقع للذات متعددة"¹³؛ فكل هذه المصطلحات التي شُيّدت في ساحة الثقافات المهيمنة تشف بوضوح كما يعبر "هومي بهابها" عن مركزيتها وبلاغاتها في استمالة الآخر، وجعله هامشاً عرضياً ينظر إليه عادة على أنه موضوع للاستغلال والهيمنة.

وقد سارت "غياتري سبيفاك" Gayatri Spivak في هذا التوجّه مع زميلها في البحث "هومي بهابها" وتجاوزته حين أدخلت إلى مفهوم ما بعد الكولونيالية، الدراسات الأدبية النسوية المهمّشة، واعتبرته أدباً من درجة ثانية سيطر عليه الخطاب الذكوري الأبوي، ما

جعل المرأة تعيش تحت قسر مضاعف يمثلها الصوت الذكوري من جهة وتمثله السلطة الاستعمارية من جهة أخرى.

وقد ولدت "غياتري سبيفاك" في البنغال الغربي سنة 1942م، وهي تنتمي إلى الجيل الأول من مثقفي الهند بعد الاستقلال وقد لمع نجم "سبيفاك" في العالم إثر ترجمتها الانجليزية لكتاب "في علم الكتابة" لـ "جاك دريدا" بمقدمة وافية كتبها "سبيفاك"، وإلى تلك المقدمة يعود الفضل ليس لشهرتها فقط، بل لدخول استراتيجية التفكيك في صلب الثقافة الأنجلوسكسونية، ومنذ ذلك الوقت اعتمدت هي نفسها على استراتيجيات التفكيك في دراساتها النظرية وتحليلاتها النصية، كما لـ "سبيفاك" عدّة مقالات وكتب نذكر منها: "في عوالم أخرى"، "مقالات في السياسة الثقافية"، ومنها من اتخذت شهرة عالمية، كمقالها "هل يستطيع التابع أن يتكلم عام 1987م، أضيف إلى ذلك كتاب: "ناقد ما بعد الاستعمار: لقاءات، استراتيجيات، حوارات"، "نقد عقل ما بعد الاستعمار" إضافة إلى العديد من المقالات، والبحوث، والمؤتمرات، واللقاءات الأخرى، وجميع هذه الأعمال جعلتها تعتلي مكانة كبيرة في دراسات ما بعد الاستعمار و"دراسات التابع" على وجه الخصوص، فهي تدرج ضمن النخبة المؤسسة لهذه الدراسات. واشتهرت "سبيفاك" بدراساتها لواقع الطبقة التابعة في المجتمع. وقد وصفها أحد زملائها بالقول: "هي نموذج للثقافة الجامعية الهندية، مثقلة بالدراسات العليا في الجامعات الأمريكية، تركيبة علمية قد تكون أفضل المتاح على وجه الأرض. أما "سبيفاك" فتصنّف نفسها على أنها ماركسية نسوية تفكيكية عملية، منحتها حكومة الهند جائزة بدما بهوشان Bhushan Padma تكريماً لجهودها سنة 2013م، كما حصلت "سبيفاك" على جائزة كيتو Kyoto Prize للفنون والفلسفة في 2012م¹⁴.

وتعتبر "غياتري سبيفاك" أحد الوجوه الهامة في النظرية ما بعد الكولونيالية وقد رجّح أغلب الدارسين أن مفهوم "التابع" قد تشكل واتضحت معالمه - في أحسن ما يكون - مع هذه الناقدة في كتابها "هل يستطيع التابع أن يتكلم؟" "can the Subaltern speak" وقد سعت "سبيفاك" دائبة في أبحاثها إلى تخيّر مصطلحاتها تخييراً دقيقاً ينمّ عن وعي بدلالات الألفاظ والمصطلحات، لذا جاء اختيارها لمصطلح "التابع" يترجم ذلك الحرص،

دراسات ما بعد الكولونيالية عند "جماعة التابع" الهندية

فاختيارها لمصطلح "التابع" راجع بالدرجة الأولى إلى الطبيعة الشمولية التي يتميز به هذا المصطلح في حد ذاته، فهو مرن قابل للتكيف ذو حمولة ثقافية شاملة لمختلف الإثنيات والهويات الاجتماعية بما فيها فئات المناضلين والمعدومين من النساء وما إلى ذلك.¹⁵ وهذا لوصف تاريخ وتجارب تلك الفئات المهمشة - والمرأة على وجه الخصوص - التي تحظى بخصوصيات إثنية

والتي كانت الأكثر تضرراً واستغلالاً من قبل المستعمرات الغربية. هذا ما جعل من "غياتري سبيفاك" منظرةً بأجندنا نسوية بحق¹⁶؛ فقد عملت على محاربة التبعية بكل أشكالها (تبعية المستعمر للمستعمر، وتبعية الجنوسة : الأنوثة للذكورة، وكل طرق الاستغلال والتبعية الأخرى التي تؤسس لمركز وهامش. لقد حاربت "سبيفاك" على جبهتين :جبهة الثقافة الذكورية المؤسّسة والمكرسة في الخطابات الفكرية في المجتمعات الغربية ،والثانية جبهة بقايا التأثيرات الاستعمارية في العالم المستعمر سابقا فضلا عن تهميش المرأة في العالم الثالث وبنياته الاجتماعية والثقافية والتربوية والسياسية (...). كل هذا بحزمة من المناهج تنوعت ما بين الماركسية بصيغتها النقدية والنسوية والتفكيكية والنظرية ما بعد كولونيالية¹⁷، لتطرح "سبيفاك" بعدها سؤالها الرئيس هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ وسط منظومة استعمارية امبريالية مركزية ؟ وهل توافرت الأجواء الفكرية والثقافية للتابع كي يتكلم؟ لتجيب بأنه من الصعب استدعاء هذا الصوت . على الأقل - في الوقت الراهن ،نافية بذلك إمكانية التمثيل الذاتي للمقموعين والمقهورين والمهمشين¹⁸. والتمثيل لا يكون إلا بفتح المجال أمام الهوامش للبروز كذوات إنسانية عن طريق خلق معادلات أخرى يتم بها التأسيس لهوية مضادة للهوية الاستعمارية، عن طريق الكتابة و الفن بشكل عام.

كما تحدثت "غياتري سبيفاك" عن التصنيف الطبقي من خلال تطرقها إلى وضع النساء الهنديات، وخصوصاً نساء الـ (Sati) اللاتي نُظِرَ إليهن من منظورين مختلفين: الأول، بريطاني كولونيالي: إذ رآهن ضحايا مثيرات للشفقة، ظلمهن الدين والمجتمع البطريكي. والثاني، وطني هندوسي: رآهن زوجات مخلصات، ومؤمنات تقيّات، وبطلات شجاعات.

وبين هذين المنظورين المتناقضين يضيع "صوت التابع" ويعجز عن التعبير عن نفسه بنفسه. فحين صوّرت الأرامل الهنديات على أنهنّ ضحايا البربرية، لم يطلب أحد رأيهن، ولم يُسمع صوتهن حول هذا الموضوع، وندسى أنه مهما تبدو أصوات الأرامل واقعية، فإنها لا تعدو أن تكون – كما تقول سبيفاك – مجرد تمثيلات خُلقت من منظور كولونيالي لكي يبرر بها وجوده وأطروحاته المعرفية حول مهمته الحضارية المزعومة، وعندما صوّرت على أنها بطلة وزوجة وفية، فإنها حُرمت هذا الحق بإلغاء هذه الشعيرة بقرار كولونيالي، ففي كلتا الحالتين ضاع صوت المرأة/التابع بحجة أن هناك صوتين نخبوين يدّعيان أنهما يتحدثان باسمها ويدافعان عن حقوقها.

إنّ استعادة صوت "التابع" عند "سبيفاك" مشروع محكوم عليه بالفشل، وذلك راجع لعدة اعتبارات تشير إليها في عدّة مواضع من كتبها، أولاً تشير "سبيفاك" إلى ضرورة التفريق بين مصطلح speak مقابلًا للكلام و talk مقابلًا للتحدّث، فأغلب الدراسات التي هاجمت "سبيفاك" وأكدت أنّ التّابع له القدرة على التحدّث، إنّما جاء نتيجة خلطها للفروق اللغوية الدقيقة بين هذين المصطلحين، لهذا تفرّق "غياتري سبيفاك" بين فعل الكلام act of speak الذي يكون أكثر نشاطاً وله متضمنات المشاركة والتفاعل مع متلقٍ أو أكثر، وبين فعل التحدّث act of talk، الذي غالبا ما يشار إليه بالسلب وهو أقرب إلى المناجاة والمونولوج اللذان لا يقتضيان تفاعلاً واستجابة. فالكلام في عُرف "سبيفاك" هو فعل و ردّة فعل بين باثٍ ومُتلقي، وهذا الذي قصدت به "سبيفاك" بعدم المقدرة على الكلام؛ وليس الكلام بما هو منجز لفظي إنساني يتم على مستوى جهاز النطق، إنّما الكلام بما هو تفاعل واستجابة بين أنا وآخر، بين مستعمرٍ ومستعمر. فحين يحاول التّابع أن يتكلّم يصبح حديثه محرّفاً بصفة كلية لأنّ الآخر/ المستعمر لا يريد أن يتلقى الخطاب المختلف عنه، أو ليس جاهزاً ليدخل في حوار مع هذا المختلف، بهذا يصبح نظام التواصل عاجزاً عن أداء وظيفته التفاعلية. فالتّابع لا يستطيع أن يدخل ضمن شبكة تحاورية نتيجة التباينات والفوارق الاجتماعية التي أنتجها المستعمر، فلا صوت يعلو على صوت المستعمر، وبهذا يضيع صوت التابع فلا يستطيع أن يتكلّم.

دراسات ما بعد الكولونيالية عند "جماعة التابع" الهندية

بهذا رسّخت "سبيفاك" بدفاعها عن التابع بصفة عامة، والمرأة بدرجة أخص، متقاطعة ومكمّلة لمجهودات زميلها الآخر في الجماعة، المفكر الهندي "رانا جيت غوها" أحد الوجوه البارزة على ساحة نقد الخطاب الاستعماري و"دراسات التابع" على وجه الخصوص، فهو من المؤسسين لها والمحرر لكل دراساتها، فقد شق لنفسه طريقا في هذا الحقل متوسّلا في دراساته بعلم كتابة تاريخ لتابع وجعل منه منهجا قويا من خلاله دراسته لثورة الفلاحين، في الهند وهي إحدى الحركات المناهضة للاستعمار البريطاني، اتخذت أبعادا إنسانية من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية وإعادة النظر في قانون توزيع الثروات داخل المجتمع.

لقد تبنى "رانا جيت جوها" هذا المنظور الثوري الذي أنتجته الفئات المهمشة وعمل على كشف وتصحيح المفاهيم الخاطئة التي روجت لها الامبريالية البريطانية من خلال تحفيزه للفلاحين والدفاع عن مطالبهم المشروعة، وعمل على كتابة تاريخ جديد يأخذ على عاتقه الدور المحوري لهذه الجماعات الضعيفة في صناعة تاريخ الهند.

4. خاتمة:

في نهاية هذه الدراسة، يتبيّن جليا الإسهامات التي قدّمتها "جماعة التابع" في ترسيخ قواعد دراسات ما بعد الكولونيالية، وقد كان اشتغالها تطبيقيا عمليا تفكيكيا أكثر من كونه اشتغالا على مستوى المصطلح وفق دلالات اللغة والتراكيب؛ فالجماعة اشتغلت على تفكيك التراكبات الاستعمارية وأقرت المناهج الكفيلة لتحقيق ذلك، ووسّعت دائرة اهتماماتها لتشمل جميع مجالات الحياة، السياسية، الثقافية، التاريخية وغيرها، فتوسّع بذلك مفهوم دراسات ما بعد الكولونيالية محافضا - في الوقت نفسه - على الخصوصيات الثقافية والاثنية. لكل أمة في نقدها للاستعمار؛ كون هذا الأخير يختلف في طرق بسط سيطرته من أمة إلى أخرى، لذلك كان واجبا على الشعوب أن تتخيّر لنفسها الطرق الأنسب لمجابهة تلك السياسات تبعا لتغيّر الاستراتيجيات الاستعمارية. لهذا، وبتوصيف أدق رسّخت "دراسات التابع" الحدود النظرية لدراسات ما بعد الكولونيالية، ثم فسحت المجال أمام الشعوب لتخير طرق التعامل مع كل كيان استعماري على حدة.

¹ See: Antonio Gramsci, *The prison notebooks :selections, trans, quintinhoare, and Geoffrey Nowell smith, Elecbook, London, 1999, p:131.*

² See: Datta G. Sawant , *Perspectives on Post-colonial Theory: Said, Spivak and Bhabha, date of release: October 2011,date of perusal: October 2016, www.researchgate.net.*

³ ينظر: البشير ريوح، ما بعد المابعد، الممارسة الدينية بين منشود القيم وإكراه المكبوت، مجلة الجديد، الكويت، العدد 19، 2016م، ص: 38.

⁴ حامد العظم، بعيدا عن الفلسفة الزائدة والتنميق في الخطاب...هذا ما يعنيه مصطلح ما بعد الحداثة، تاريخ النشر: 2016 / 07 / 03، تاريخ الاطلاع: 2016 / 09 / 25. الرابط: www.m.huffpost.com

⁵ نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، مصر، 2003م، ص: 550، 551.

⁶ See : Wlodzimiers Bolecki, *Postcolonialism and Modernism, centrum humanistyki sufrowei ,New york 2014, p : 59.*

⁷ عبد الله إبراهيم، التخيل التاريخي والتمثيل الاستعماري في العالم، مجلة يتفكرون، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المغرب، العدد الثالث 2014م، ص: 51

⁸ See : David Ludden ,*Reading subaltern studies, Anthem press, London, (n.d), p: 02.*
⁹ ينظر: عبد الله إبراهيم، قراءة في دراسات التابع، موقع مجلة الرياض، تاريخ النشر: 2005 / 08 / 25. تاريخ الاطلاع: 2018 / 12 / 26. الرابط: www.alriyadh.com

¹⁰ See: Christian Lee and Laurie Patton, *Subaltern, (n.e), (n.d), p: 01.*

¹¹ ينظر: رامي أبو شهاب، خطاب ما بعد الكولونيالية، المصطلح والمفهوم، موقع الحوار المتمدن تاريخ النشر: 2014 / 02 / 19. تاريخ الاطلاع: 2018 / 10 / 05. الرابط: www.m.ahewar.org
¹² المرجع نفسه.

¹³ هومي بابا، موقع ثقافية، تر: ثايرديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2004م، ص: 12.

¹⁴ ينظر: دنشمناد، غياتري سيففاك، نظرية هندية لخطاب ما بعد الاستعمار، مجلة ثقافة الهند، الهند، المجلد 65، العدد 1، 2014م، ص: 37، 38.

¹⁵ See: Stephen Morton, *Gayatri Charkavotry Spivak, Routledge Taylr France group,London , 2004, p: 45.*

¹⁶ See: Datta G. Sawant, *Perspectives on Post-colonial Theory: Said, Spivak and Bhabha , previouce refrence.*

¹⁷ عمر أزراج، المفكرة الهندية غياتري سيففاك ركن مكين من العالم، تاريخ النشر: 2014 / 12 / 21، تاريخ الاطلاع: 2018 / 12 / 28. الرابط: www.alarab.co.uk

¹⁸ ينظر: لورد حبش، لاجئ يرد بالكتابة على المركز، تحرير: عاصم خليل، مركز إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية، دط، جامعة تيرزيت، 2011م، ص: 06.